العقل العراقي : اسلام فوبيا /زينو فوبيا
سيسيولوجيا تمكين العقل العراقي

أ.د. متعب مناف جاسم

مفكر وباحث اكاديمي

الخلاصة

في خلاصة بحثي الذي خصصته لدراسة معوقات العقل العراقي راهنا ثم التحول نحو تمكينه فعلا وفاعلية وجودا و تفوقا. ومن نتائج البحث (findings)

ان العقل العراقي كما هو حال العقول العربية والاسلامية الشرقية اسير محبطات ليل في مقدمتها ان العقل العراقي انما يتحرك في فضاء ضيق احتلت اغلبه – الفضاء– فوبيتان (رهابان) الاول الزينوفوبيا الخوف المرضي الرهابي من الاخر الغريب البعيد (اوربي امريكي). للعقل العراقي مع رهاب الاجانب ضمن منطقة الشرق الاوسط وبعيدا عن المنطقة تجارب مرة ومؤلمة تراوحت بين الاحتلال والاستغلال ثم الاستشراق ونهب الاثار قد يصل الى حدود الغزو الحضاري /الثقافي

لقد اخترق الاخر الاوربي والبريطاني بالذات ثم الاخر في ٢٠٠٣ نسيج (المجتمع العراقي) ورسائل المس بيل (miss bell) والقرارات والاجراءات التي اتخذها بول بريمر الحاكم المدني الذي فشل في ان تربح معركة السلام الامريكية كما ربحتها جيوشه حربا

لقد تمكن الغربي الاوربي /الامريكي حصر العقل العراقي السياسي في حيز ضيق بين المشاركة والمغالبة (كي يبني) دولة واكب ذلك نشر نفس هذا الغريب الاوربي الامريكي ثقافة الهويات المتصارعة الى حد تصفية بعضها البعض وتهجيره دن الزعم ان ما اثاره استثارة الغريب محتلا او مستغلا او مستشرقا ليس له جذور في السائد من ثقافتنا يلائم في هذا المجال تاريخنا المحمل بالهموم دون بدائل على عكس مجتمعنا العراقي الذي ادرك ان سلمه الاهلي قد يعني القطيعة مع التاريخ

الاخر الغريب اعد فتح التاريخ واصلا به الى المجتمع لذا فقد تداخل مفهوما المشاركة والمغالبة اذ فهمت المشاركة مغالبة والمغالبة مشاركة والناتج هو دولة محاصصة تظل الازمة تحاصرها بفساد اداري ومالي بل اجتماعي وصل البعض به الى طرد والاسلاموفوبيا هي الاخرى من مصنعات المجتمع الاخر غرضها ان يتلبسنا وهم ان الاسلام في خطر لأنه لا يستطيع ان يتقبل متغيرات اليوم.

هذه الاسلاموفوبيا (رهاب الدين) وضعت العقل في منطقتنا في دائرة من الحيرة وصلت الى حد المحنة (crisis) فالعقل وبفعل ما يتعرض له الاسلام واقعيا وافتراضيا عليه ان يتصدى او ينسحب وفي الحالتين هو مضطر بل ومستفز، فاذا تصدى وجابه فهو راديكالي (متطرف منفعل) وهذا ما يؤيد وجهة نظر الاسلاموفوبيا اذ عليه ان يكون عقليا منفتحا يقبل ويتقبل والا فهو ضد حرية الراي والتعبير اذن فهو (ارهابي) ليعيش خارج العصر اما اذا نكص عقلنا – وهذا ما يريده الغريب الاخر لمخالف لان عقلنا –وهو في نكوصه وانسحابه للداخل انما يبدا بلوم ارادته لأنه – خان واجبه وداس على ضميره وانتهك قناعاته قد يصل به الى حد الكفر. يدفعه الى ان يجلد – العقل– ذاته وصولا الى التطهر مع احياء للمظلومية والبكائية في سلوكه وقد دفع مثل هذا النكوص بالعقل او ببعض العقول العراقية ان تصغي/تغربل الموروث وتخلصه مما قد يعطي الاخر المخالف (الاوربي/الامريكي) المادة التي يحولها الى اسلحة يوجهها الى الاسلام ورموزه او ايقونات هذا الدين

وهذه طامة كبرى اذ يبدأ عقلنا بالتخوين و العمل على ايجاد اكباش فداء يمكن ان يدانون مما يقسم المسلمين من الداخل كما يرفع من اسهم التمذهب والطائفية ثم ان الكتاب المقدس و العهد القديم منه – التوراة– مليء بمثل هذه القصص الجنسية الدموية ونبذ الاخر الى حد التسقيط فلماذا لا يتم حذفها او الاعتذار لها من قبل الاخر المخالف؟ الجواب لان هذا الاخر المخالف انما ينطلق من صعيد القوة العسكرية/ الاقتصادية/ التكنولوجية/ الثقافية لذا فهو دائن اما غيره فهو مدين وشتان بين من يفهم الحق قوة و بين من يفهم القوة حقا.

و بالمحصلة فان العقل العراقي هو اكثر عقول منطقتنا ابداعا ولكنه اكثرها حساسية وتأثرا اذ قد يتعطل عندما يهاج الى حد هدم المسلمات التي حرص على احاطتها بالتحريم و التقديس ووضعها في خانة الممنوع –وله الحق في ذلك– لكن مهاجمتها ولو افتراضيا – فان العقل العراقي يفقد بوصلة طريقه ويظل يتحرك في دائرة ردود الافعال فأما ان يتطرف او ان ينحرف فيتدارى الى حد التواري وقد يمعن الاخر المخالف في هز العقل العراقي في قناعاته ومسلماته فلا يهاجم الجوهر الاسلامي وانما يبدأ بالحواف والمظاهر كما في الحجاب و النقاب ودور المرأة وحريتها و الكل يعرف ان الحجاب عادة وليس عبادة

والحل البديل ان نعي ابعاد الزينوفوبيا والاسلاموفوبيا ونحاول ان نضع خارطة طريق و نجعل الانتماء للعراق مع قبولنا بالهويات الاخرى ومنها الدينية وصولا الى بناء مواطنة تهتم بالصحة و التعليم و البنى الاساسية والتنمية المبنية ليس على اقتصاد ريعي (الوفورات النفطية) فنتحول الى اقتصاد منتج. اما المعمل الذي يتم فيه تصنيع العقل العراقي المبادر المنتج المكون المضيف فهما الجامعة العراقية لتصنع نخبة لا تكون نكبة وانما تعبد طريقنا الوعر لنكون ونتفوق.

العقل الحضاري وحضارة العقل

كيف ينتج العقل الحضاري (civilization mind) ؟ مرت حضارات العالم (مدنياته) غابرا وحاضرا بمرحلة صفر حضاري (zero point) تمثلت في الخضوع التام للطبيعة الى حد التسليم اقترنت هذه المرحلة الصفرية باقل اشكال التنظيم الاجتماعي تقسيما للعمل.

قد يكون شرقنا واوسطه بالذات والعراق خاصة. القبيلة/العشيرة حيث الكل للواحد والواحد للكل انثروبولوجيا فان القبيلة تعتمد على المطر لذا فإنها تظل محكومة بالوسط الصحراوي لان المطر هو مصدر الحياة لذا فالقبيلة تمعن في ترحالها في عمق التيه القاحل تعيش اقتصاد كفافها وفق معادلة مالثوسية توازن بين شحة الموارد وتناقص في اعداد الاعضاء في القبيلة.

اما العشيرة فرغم تنظيمها القبلي فإنها تعتمد على نهر يضمن ان تكون اكثر امانا ليس ليومها –كما في القبيلة – وانما لغدها .

الا ان النهر– رغم ديمومة توفيره لحد ادنى من العيش – الا ان التواجد على الضفاف يرتب مسؤولية جديدة ترتبط بفيضان او صيهود هذا النهر لذا لابد من ادارة لهذه الموارد .

هذه الادارة – ومهما كانت بدائية في تشكيلها الوظيفي– الا انها ارست قاعدة ادارية – بيروقراطية الطابع– افضت الى بناء انظمة للري ، توزع عن طريقها المياه بشكل (حصص) – كما في مارب اليمن وسده الذي خلده التاريخ حيث يتم ارواء ابعد الاماكن والنائية القصية قبل تلك القريبة من السد مما زاد من قوة السلطة ووسع من مسؤولية الراس الحاكمة دفع به لتحويل ادارته السلطوية الاروائية الى دولة ما لبثت ان اضحت امبراطورية والنصوص القرآنية تدعم وجهة النظر هذه في بناء السلطة والدولة والامبراطورية – ممالك الشرق الاوسط القديمة– على التنظيم العشائري وليس القبلي ((اني رأيت امرأة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم)) ان وجود (المرأة) في مثل هذا المركز القراري المتنفذ حاكمة وفي فترة موغلة في الزمن القديم دليل رقي في مجال العدالة الاجتماعية وممارسة محسودة لحقوق الانسان وحق المرأة بالذات نفتقر الى ما يماثلها في العديد من اوساطنا العربية والاسلامية والشرقية في العراق وجيرانه في القرن الواحد والعشرين.

العشيرة بنت المجتمع والقبيلة بنت الدولة: مفارقة حقا ان ما الغائية راهنا وعلى امتداد اوسط شرقنا والعراق بالذات وبعد (٢٠٠٣) اننا نحاول ان نبني دولتنا على القبيلة بعددها المحدود وكفاف اقتصادها وتعودها على التنقل لا لشيء الا ان القبيلة شديدة بطبعها لذا فان اكثر حلولها (امنية) تمارس فيها القوة والتسلط مع شخصنة قاتلة ودمج تام بين مال الحاكم والمال العام واستمرار حالة الطوارئ وقانون الطوارئ مع هيمنة ابوانية وعسف ذكوري.

اما العشيرة –القبيلة النهرية– فإنها تدنت الى المرتبة الثانية رغم انها البانية للمجتمع والاقرب للطابع المدني والتمذهب وتبني القيم المدنية رغم طغيان الطقسية عليها (العمامة و الافندي د.فالح عبد الجبار) لذا فان العشيرة التي تمثل المجتمع والقبيلة التي تنتج الدولة اذت الى تباعد بين مجتمع العشيرة وسلطة (دولة) القبيلة واوجد فراغا بينهما ادى الى فقدان الثقة بين العراقي وسلطة دولته .

هذا التباعد بين المجتمع والدولة راهنا اثر في العقل العراقي الذي يمثل لب الثقافة العامة والثقافة السياسية بخاصة

حضاريا في بلاد ما بين النهرين (Mesopotamia) كان هنالك تقارب بين العقل الحضاري وحضارة العقل الا ان الفترات اللاحقة ما واكبها من انقسام حاد بين مجتمع العشيرة وسلطة القبيلة فسح المجال للاسلاموفوبيا والزينوفوبيا ليعش ضائعا بينهما العقل العراقي راهنا يبدا التراجع وسلوك سبيل التخلف

الفوبيات وازمة العقل العراقي في الراهن

العقل العراقي كما العقل العربي والاسلامي بل الشرقي انما يعاني من فوبيات تتداعى عليه وتجعله يعيش اشكاليات واحدة بين اقسى ازماته يضطره الى الانكفاء الى الداخل وتضيق معه البدائل التي قد تختزل في المذاهبية (التغالب المذهبي / الطائفي) ثم المحاصصة او انتظار مرا ومؤلما لمخلص

ولعل الاسملاوفوبيا (Islamophobia) والزينو (الاخر) فوبيا (xenophobia) هما من اقسى الفوبيات (الرهابيات) التي تحاصر العقل العراقي راهنا سالبة منه المبادرة محولة اياه الى طريدة (دون ان يكون صيادا) هذا الوضع للعقل الشرقي الاسلامي العربي العراقي من ان يكون صيادا مطاردا جهله طريدة (مطاردا) فرض عليه – بعد ان خسر زمام المبادرة ان يكون اما مغامرا او مقامرا وصلت به راهنا توقع المؤامرة وهذا تكرار –استنساخي لما ورد في العهد القديم (التوراة) ان الاعرابي/العربي (يده على كل الناس ويد كل الناس عليه، لذا فهو (لقاح) لا يحكم او يحكم.

او كما جاء في النص القرآني((قالت الاعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم)) والسؤال لماذا هذه الفاصلة الزمنية بين الاسلام والايمان ولماذا اختص بها الشارع العظيم العرب دون غيرهم، وهل هنالك خلاف بين الاعراب والعرب ؟

فهل كان الاستاذ الهندي الاصل سيد امير علي مصيبا وموفقا في تسمية سفره (كتابه) العرب (سيراسين seraseen)اي خدام سارة –زوجة ابراهيم– او انهم المدلجون الذين يتخذون من القمر (seen) هاديهم في قطعهم لمفازات الصحراء ليلا؟ لماذا وكيف وحد العقل العراقي بين الاسلاموفوبيا

والزينوفوبيا؟: قد تكون الزينوفوبيا او الخوف (المرضي) من الاخر الغريب المختلف سابقا او حتى محركا (مشغلا) للاسلاموفوبيا.

ان جذور الزينوفوبيا انما برزت كرهاب (خوف مرضي) قبل ثلاثة قرون اي عندما انكشف الشرق بعد ان يئس من قبول احتواء السلطنة/ الخلافة العثمانية لبلدان وسط الشرق والعربية بالذات لهذه البلدان بالذات التي وعت ان حضارتها القديمة تؤهلها للعب ادوار اكثر فاعلية في الحاضر وبشكل مؤكد في المستقبل .

وقد تميز العراق ومصر من هذه البلدان اذ ظهر في مصر محمد علي (الكبير) الذي استطاع ان يكون ندا للسلطان العثماني الذي سلط مماليك لحكم مجتمعات لها تراث حضاري حاضر في انجازاته (اهرامات وجنائن معلقة وانظمة ري ومدارس وادارات بيروقراطية واضافات في الهندسة المعمارية والمعتقدات التي وصلت الى حد التوحيد في مصر القديمة الفرعونية وحد التقنين في عراق ما بين النهرين ممثلا بشريعة (حمورابي ١٧٦٥ ق م) دون نسيان ان اغنى فترات العز العثمانية واثناء حكم (سليمان القانوني) الذي وصل بجيشه الى ابواب عاصمة النمسا (فيينا) انما توزعت همة بلاطه (مقرر القرار صنعا وتخطيطا) على معطيات (حوامل) هي : الجنس (الحب) والمجد والخيانة، ولذا فان السلاطين من بني عثمان – وقد احسوا بقرب اجل السلطنة وانهيارها– لم يشفع لهم ان يكونوا خداما للحرمين الشريفين .

واكب ذلك اهتمام بعض اهل الغرب (اخر ومختلف) من الحكام والمغامرين الذين ادمنوا خلط الاوراق والخنادق وهم يعيشون (رعشة) الليالي الواحدة بعد الالف التي اختلطت بأساطير العهد القديم وبوله رجوع لكنوز الشرق السائبة الى حد تسمية لورنس الجاسوس الانكليزي الذي اصابته الدهشة الى حد الصدمة عندما اكتشف ان اجهزة جسم العربي البدوي تشبه صنوه البريطاني، باسم لورنس العرب (lorance of Arabia) جاء ذلك في كتاب اسمه اعمدة الحكمة السبعة والمفارقة المؤلمة ان هذا الغريب البعيد المختلف في جغرافيته وثقافته واسلوب حياته ودينه وتطلعاته ونظرته الدونية الى كل ما هو شرقي ومن الشرق، هو الذي حرك الركود الذي لف وجودنا لقرون عجاف وليالي تعصب بالسواد هذا ما ورد في كتبنا المدرسية فغزو نابليون الاول (الامبراطور) لمصر الكنانة وقاهرتها المحروسة التي خضعت لحكم مملوكي ظلامي وظالم وما جلبه هذا الغازي (نابليون) من علماء وآثاريين مع تفوق في التنظيم العسكري والادارة المدنية والالتزام بقواعد العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي الغزوة التي ايقضت مصر بثقلها الجيوستراتيجي والسكاني وعبقرية موقعها، فانتشر نور التحول متجاوزا مصر ليعم وسط الشرق بأكمله.

فاذا اضفنا الى غزوة (استعمار) نابليون الاول لمصر ما ارتكبه جيشه الفرنسي من فضائع في الاسكندرية والقاهرة واذلاله للمصريين من عبث ونهب لمواردهم واثارهم والجمعيات التبشيرية ومحاولتها نشر المسيحية الغربية واقتصادها الرأسمالي .

هذا الغزو (الثقافي) التبشيري الاوربي الممنهج الذي حاول تغريب اهلنا عن تراثهم، ادخل في قائمة العامل التي حثت على نفض غبار التخلف عن العرب والمسلمين، دون نسيان ما احدثه حضور الاخر الغريب البعيد في ربوعنا وتقديمه للجديد في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات والاتصالات والصحة والتعليم والقانون وكان مجتمعاتنا كانت تعيش خارج العصر (نياما) قد سكنا المهد -لكثرة نومنا- واشتقنا التراب (المقابر) فكيف يكون المستعمر الكافر الاخر البعيد المختلف الذي تسلط عينا فدنس ارضنا وعبث بتاريخنا وحط من ثقافتنا هو الذي يوقظنا ويخلصنا من التخلف والخوف والتردد الذي كف حياتنا عن الاختناق ؟

هذه هي الصدمة (shock) التي واجهت العقل العراقي/ المسلم /الشرقي، هذه هي الاشكالية – الصعبة التصديق – استدعت العديد من (التبريرات) برر ان يصاحبها اي تفسير او تحليل او تشخيص الى حد اصابة العقلية العراقية بنوع من الشلل الفكري.

بعض ردود الفعل التبريرية ان تخلفنا هو جزاء وفاق نظرا لسوء نوايانا وجحودنا بالنعمة ومخالفتنا للصالحين من هداتنا، او خروجنا على طاعة اولياء امورنا لذا فقد سلط علينا اعمار (اخر/ غريب/ مختلف) فأذلونا وقد تكرر مثل هذا المشهد الخارق للذهنية العقلية العراقية عام ٢٠٠٣ عندما انهار النظام السابق.

لقد تلاعب الامريكي الغازي القادم من وراء البحار بالعقل العراقي مستغلا خوفه وتخوفه من الاخر البعيد المختلف ومن سيناريو قد طبخ وبعناية من احد مراكز الابحاث المتخصصة عن الشرق الاوسط والعراق بالذات لقد طرح المحتل الامريكي (مفهومين) بالإنكليزية لهما الايقاع نفسه (occupation) و (liberation) الاول يدل على (الاستعمار) والثاني يدل على (التحرير) وبالعربية فقد تمت صياغة المفهومين المتناقضين وفق ثنائية (محرر/ مستعمر) عندها تبلد العقل العراقي اذ كيف يكون المستعمر محررا ؟

وزاد الطين بلة ان عقدت العديد من الندوات اشتركت فيها (نخب) عراقية تلفزيونيا الغرض منها تجسير (الفجوة) بين المستعمر والمحرر الى حد ايهام العقل العراقي ان المستعمر قد يكون محررا سيما وان التغيير اصبح ممتنعا من الداخل وان هذا المستعمر انما يملك اغلب اوراق اللعب وفي مقدمتها القوة القوية وهو صانع المستحيل. غزت مفارقة (مستعمر محرر) وما تم من اشتغال لردم الفراغ الفاصل بينهما جذور تخدير العقل العراقي وهدم العديد من القناعات التي بناها وتبناها هذا العقل

خلال تاريخه الطويل المرير وبالأخص منذ القرن السادس عشر الميلادي الذي (ارتهن) فيه العقل العراقي الى الخارج ايران تركيا، عوق مبادرة هذا العقل وتحرر فكرته /مسلوبة لهذا الطرف او ذاك –فاذا اضفنا الى هذا الارتهان الثنائي –ايران/ تركيا والعثمانية بالذات، بريطانيا واوربا ثم الولايات المتحدة الامريكية، تكون الزينوفوبيا (xenophobia) او الخوف المرضي من الاجانب مستشرق مستعمر محرر ومستثمر قد استقرت في الذهنية (العقل) العراقي سالبة قدرته في صياغة قراره وباستقلاليته.

رغم ان محرك (مشغل) هذه الفوبيات يكاد يكون واحدا في اللب منه الثقة المتناقصة بين الشرق الحالم و الغرب العالم يتعمق هذا التفاوت الفراغي لدى العرب والمسلمين والعراقيون منهم قد يرجع لحمله كما ونوعا هائلا من ضغوط الغرب واقعا وافتراضا الى الحد الذي يعيش فيه الاخر الغريب البعيد المختلف الى حد الخلاف في وجداننا ضيفا غير المرغب فيه.

اما الفارق بين الزينوفوبيا والاسلاموفوبيا ان مسار الاولى من الغرب الى العرب والمسلمين والعراقيين، اما الاخرى فهي تنطلق من العراقيين والعرب والمسلمين الى حيث هذا الاخر لقد تعاظم مد الاسلاموفوبيا بعد الحادي عشر من ايلول سبتمبر ٢٠٠١ وبذلك وجدت الولايات المتحدة الامريكية القوة الاعظم في العالم عدوا تقارعه بعد ان تفكك الاتحاد السوفيتي وعامه الاشتراكي.

تمشيا مع التصدي للعدو الجديد الذي انطلق من المسلمين الافغان بعد ان نجحت الولايات المتحدة في توظيفهم لكسب المعركة ضد الاتحاد السوفيتي في بلد اسيوي يقع على حدود وتخوم جغرافيا متصارعة حضاريا واديانيا كالهند والباكستان وروسيا الاسيوية المسلمة هو افغانستان وهكذا تم تصنيع مسكوكة مفهومية هي الاسلاموفوبيا (Islamophobia). الصياغة اشكالية الطابع لان طرفيها الاسلام دين ابراهيم يدعو الى التسامح والوسطية، اما الطرف الاخر من المسكوكة فيعكس الخوف والخوف المرضي (الرهاب) فكيف يسوغ قرن الاسلام بالإرهاب وهو الدين الذي يعتنقه مليار وربع المليار من سكان العالم تضم جغرافياتهم اكثر من ٤٠% من موارد كوكبنا الارضي وفي المقدمة مصادر الطاقة عصب الحياة التكنولوجية راهنا.

من المؤلم بمكان –وبعد ان اشرنا الى بعض جذور تصنيع مفهوم الاسلاموفوبيا– التي تحولت الى وصمة تحول دون انطلاق حوار حضارات واديان وابقائها متصارعة. لقد وظف الاخر البعيد اوربا والولايات المتحدة الامريكية الاسلاموفوبيا لشل القدرات العراقية والعربية والمسلمة والشرقية والحيلولة دون ترجمتها الى قابليات تعمل باليات لكسب التفوق.

وبالفعل فان الاسلاموفوبيا قد اثرت على مجمل ادائنا الحضاري العراقي/ العربي/ المسلم/ الشرقي طغت عليه (ردود الفعل) دون الفعل فوسع دائرة ردود الفعل الذي ازاح فعل وفاعلية ردنا بعد

ان ملك الغرب كل سبل الاتصال والتواصل علينا حصر عقلنا في اضيق الفضاءات زاد من انكفاء هذا العقل متحولا الى طريدة اخذ يتحرك –العقل– في حدود الاسلاموفوبيا –كما خطط له– وكانه هو الذي صنع هذا المفهوم الوصمة.